الفصل الثانى

تعليم الكبار فى التراث الإسلامى

ساد فى وقت من الزمن أن دراسة التراث يقتصر دورها على العودة للماضى لكى تستمد منه التوجه نحو الحاضر، وأكد اتجاه آخر أن الحاضر هو محصلة التجارب فى تفاعلها عبر التاريخ بحيث يمكن أن تتعارض أو تتعايش ويصبح الهدف من دراسة التراث التعرف على ما حدث من تغير وتطور والبحث عن التباين والتناقض فى فهم مكونات الحاضر وعلاقته بالماضى (١) .

وقد أثارت قضية دراسة التراث فى الوطن العربى وقوف العقل العربى أمام الحضارة الغربية - منذ أوائل القرن التاسع عشر - موقف طالب العلم. وأمام هذه المواجهة كان لابد وأن يرتد الإنسان العربى إلى ذاته لكى يعرف كيف يستقبل ذلك الجديد، كيف يوائم بينه وبين تراثه الذى بغيره يمكن أن تذهب عروبة مجتمعه، بحيث تستطيع أن تميز بين موقفين هما(٢) :

الموقف الأول : يمكن أن نطلق عليه الموقف المتطرف، وهو إما قابل للتراث كله ورافض للحضارة الغربية المعاصرة، أو قابل للحضارة المعاصرة ورافض للتراث وليس فى الأمر أى خيار.

والذين يقبلون التراث ويرفضون الحضارة المعاصرة ويقفون منها موقف المعارضة ولا يقتبسون منها بحجة تعارضها مع قيم المجتمع الدينية والخلقية، ساعدوا على ما حدث من تخلف شديد فى كثير من أجزاء الوطن العربى عن ركب الحياة وقطع صلة هذا الجزء عن باقى العالم ،ولا شك فى أن هذا الموقف جناية على العالم العربى وسوء تفسير للدين والقيم العربية الإسلامية. وللعقل العربى الذى لم يعرف الانفصام بين العلم والدين، والذى كان قادراً على الحوار مع أنماط الفكر الأخرى فى العالم، أخذ منها وأعطاها مما أدى إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وتجددها وتطورها بحيث كانت الركيزة الأساسية للنهضة الأوروبية.

أما الذين يقبلون الحضارة الغربية المعاصرة ويرفضون التراث فيقفون أمام

الحضارة الغربية موقف الخضوع والاستسلام باعتبارها الحضارة الإنسانية التى لاحضارة سواها فيقبلونها بفلسفتها المادية ونظمها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويتجهون إلى «بتر للتراث بتراً» وهم فى ذلك يتجاهلون الحضارة العربية على الرغم من وجود خصائص مميزة لها لا يمكن فصلها عن الحضارة العالمية بل إنها مكملة مع غيرها من الحضارات للفكر العالمى الإنسانى. كما ان هذه الخصائص لم تنبع من التراث العربى فقط، وإنما من سياق تاثيرها بالثقافات المختلفة وخلال مراحل ومزاكز التفاعل فكريًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا.

الموقف الثانى : الموقف المعتدل الذى يرى إمكانية الجمع بين الحضارة المعاصرة والتراث ويحاول ان يحقق المزيج الثقافى الذى تكون فيه الأصالة والمسايرة للعصر الراهن من أجل حضارة عربية معاصرة.

والملاحظة أن هذه المحاولة التى تمت فى بعض أجزاء الوطن العربى أدت دون وعى منها إلى تغلب عناصر الحضارة الغربية ، وتحولت بالتالى إلى مجتمعات مستهلكة للحضارة وليست صانعة لها، كما أن فقدان التوازن بين عناصر الثقافة المادية وغير المادية ترتب عليه ظهور مظاهر عديدة للتخلف بحيث وجدت هذه المجتمعات نفسها بين طرفين متناقضين، كان من نتيجته ظهور بعض الآراء التى تحاول دمج التراث فى حياتنا المعاصرة على أساس أن تأخذ من التراث طرائق السلوك التى نستطيع تطبيقها اليوم تطبيقاً عملياً ولا تتعارض مع الطرائق الجديدة المستحدثة من ثقافة المعاصرين التى استلزمها العلم والمشكلات المعاصرة.

وعلى الرغم من هذين الموقفين فإن الراى الغالب يؤكد أن تجديد الثقافة العربية يتطلب تحقيق المزيج الثقافى بين التراث والثقافة المعاصرة.

ويصبح السؤال الآن ما الأسس التى يمكن أن يقوم عليها نظام تعليم الكبار فى المجتمعات العربية الإسلامية؟.

- هل يتم ذلك بنقل وتقليد الأنماط الغربية ، كما حدث فى التعليم المدرسى، وكان من نتيجته ازمة تعليمية ذات أبعاد كميّة وكيفية؟.

- ام يكون ذلك بالالتزام بتعاليم ديننا الإسلامى، والنظر فى تراثنا العربى، والإفادة من تجارب الأمم المعاصرة لنا، لعلنا نستفيد من كل ذلك فى وضع تصور أفضل لتعليم الكبار فى المجتمع العربى المعاصر. فالمسلم مامور بأخذ الحكمة متى وجدها ولا يضره من اى وعاء خرجت.

تعليم الكبار فريضة إسلامية :

لم يكن التعليم منتشرا فى بلاد العرب قبل الإسلام، وكان أكثر العرب من الأميين الذين لم يكن لهم عهد بالعلوم، ولم يعرفوا القراءة والكتابة .

وكان النبى ﷺ أوّل من عنى عناية خاصّة بتعليم العرب القراءة والكتابة وبعد أن كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلاً فى صدر الإسلام ، أقبل المسلمون على تعليم القراءة والكتابة بتشجيع من الدين الجديد(٣) .

وكان ظهور الإسلام إيذاناً بثورة امتدّت لتشمل جميع جوانب حياة المجتمع المادّية والعقليّة وأصبح هدف الإسلام الأوّل هو هداية وتربية وتعليم الكبار على أسس جديدة .

وطلب العلم فى الإسلام ليس فقط فريضة على كلّ مسلم، بل إن تعليمه لغيره فريضة أيضاً(٤) .

ولم يقتصر التعليم فى الإسلام على علوم الدّين فقط، بل امتدّ إلى كلّ معرفة يحتاجها الإنسان فى إصلاح دينه ودنياه .

كما لم يقتصر التعليم على مرحلة من عمر الإنسان دون غيرها، لأنّ الإسلام يحثّ على التعليم المستمر مدى الحياة(٥) . فلا ينبغى لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلّم، حتى أكثر الناس علما، يحسن به أن يتعلّم ما وسعة التعلّم، وأكبرهم سنًّا يحسن به أيضاً أن يتعلّم مادامت به الحياة، لأن المرء لا يزال عالماً ما كان متعلّماً، فإذا استغنى عن العلم كان جاهلاً . ولو كان أحد يكتفى من العلم بشىء لاكتفى موسى عليه السلام ولكنّه قال :

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾(٦) .

وهكذا يكون طلب العلم فريضة، والاستمرار فى التعلّم واجب، وقد تتبدّل الطّرق، وتختلف الوسائل، وتتغيّر المؤسسات، وتتطوّر النظم، ولكن العلم لا بدّ أن ينتشر، والتعليم لا بدّ أن يستمرّ ما استمرّت الحياة، وبالتّالى فمن الطّبيعى أن تتطوّر حركة تعليم الكبار، وأن تتعدّد مؤسساته .

* * *

تطور حركة تعليم الكبار فى المجتمع الإسلامى :

مر تعليم الكبار فى المجتمع الإسلامى بأدوار ثلاثة هى :

- الدور الأول : (من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية (١٣٢هـ - ٧٤٩م) .

جمع الإسلام شتى قبائل العرب تحت لوائه ، وألف بين قلوبهم ، وأصبحوا بذلك أمة واحدة . وبعد أن كانوا يدينون لرؤساء قبائل متفرقين ، دانت قبائل العرب إلى الدين الجديد ، وأصبحت ترى فى الاسلام رمزا لوحدتها ، فقامت بذلك الدولة العربية الإسلامية على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، لا فرق فى ذلك بين عربى وأعجمى .

وقد غير الإسلام من أخلاق العرب ، وأيقظ نفوسهم ، وحيا ضمائرهم ، كما عنى بالعلم وتشجيعه ، والدعوة إلى تحصيله . فقد حرص - الرسول ﷺ - على تعليم الصحابة القراءة والكتابة ، وفرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين عوضا عن الفدية « فوضع بذلك الأساس الحضارى للتربية الإسلامية » [٧] .

ولم يختص النبى الرجال بالعلم والتعليم ، بل كان يحرص على تعليم النساء أيضاً ، ويحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم .

ولم ينفرد الرسول - ﷺ - وأصحابه بنشر الدعوة وتعليم الناس فى المدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية ليعلموا الناس ، كما لو يتركوا البدو والرحل من غير أن يرسلوا لهم من يعلمهم أمور دينهم . وكان ممن يعلم فى البادية أبو مالك عمرو بن كركره [٨] . وابو شروان العكلى والحشى [٩] وكلاب بن حمزة الذى أقام بالبادية معلماً [١٠] .

وقد ألقت تعاليم الرسول بذورها فى تربة خصبة ، فانتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا ، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة ، والحافظون لكل ما روى عن النبى من أحاديث وأخبار ، ولقد تالفت من هؤلاء الرجال جماعة العلماء الأجلاء الذين انبثقت منهم يوما طبقة من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين فى المجتمع الإسلامى [١١] .

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الأمصار الإسلامية ، فقاموا فيها بحركة علمية ، والتفت حولهم تلاميـــذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس .

وكان من الطبيعى أن تتركز عناية المسلمين فى صدر الإسلام على العلوم الدينية ، فاهتموا بعلوم القرآن قراءة وتفسيرا ، واهتموا بالحديث الشريف رواية وتحقيقا ، كما أنشأوا علم النحو ، ووضعوا علوم العقائد والفقه (١٢) .

وقد اهتم الأمويون بالعلوم المتصلة بالدين ، وكان لفنون الشعر والأدب حظ عندهم ، بعكس الفلسفة والعلوم العقلية التى كانوا لا يميلون إليها (١٣) .

وكانت المساجد فى هذا العصر تعد من أكبر المعاهد لدراسة القرآن والحديث والفقه ، وتعليم اللغة العربية وأصول الدين ، وأصبح كثيراً منها مراكز هامة للحركة العلمية (١٤) .

ونخلص من ذلك إلى أن هذه المرحلة اهتمت بتعليم الكبار ، وتركزت بصفة خاصة على إتقانهم القراءة والكتابة ، كمدخل ضرورى لحفظ القرآن الكريم وتدوينه ونشره . وكان المسجد هو المؤسسة التعليمية الاولى التى يتم فيها تعليم الكبار .

- **أما الدور الثانى لحركة تعليم الكبار** ، فيبدأ من قيام الدولة العباسية (١٣٢هـ -٧٥٠ م) حتى إنشاء المدارس النظامية فى بغداد (٤٥٩هـ-١٠٦٧م) وكان دور أوائل العباسيين أسمى أدوار العرب فى الشرق ، فقد انقضى زمن الفتوح ، وحل عصر الحضارة (١٥) .

وكان لاتساع رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى أصبح أكثر الناس طلابا للعلم وأنصارا للأدب . وكان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا إلى موارد العلم والمعرفة ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين. ومن ثم فقد ظهرت فى ظل الدولة العباسية طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم (١٦) .

وبلغت الحضارة الإسلامية أوجها فى الفنون والعلوم والآداب فى القرن الرابع الهجرى وذلك على الرغم من انقسام العالم الإسلامى إلى إمارات مستقلة كثيرة وقد أدى تنافس تلك الإمارات والممالك الإسلامية إلى تشجيع العلم والعلماء، فاصبحت الدولة الإسلامية متحدة من الناحية الثقافية على الرغم من تفككها من الناحية السياسية .

كما اتسم هذا العصر بروح التسامح ، واختلاف المذاهب ، وامتزاج الثقافات، وزيادة حركة التدوين والترجمة والتأليف ، وانتشار حلقات البحث والمجادلة والمناظرة ، وظهور الربط والخوانق . وكان لذلك آثاره فى التربية ، فتنوعت الدراسات ، واتسعت المناهج ، وتعددت المذاهب الفلسفية والدينية ، وانكب المسلمون على علوم الإغريق والفرس والهنود وترجموها ، وأضافوا إليها ، ووصلوا إلى مرحلة التجديد والابتكار .

وقد ساعد على نشاط الحركة العلمية وانتشار التعليم ، تقدم صناعة الورق ، حيث سهل نسخ الكتب ونقلها ، وإقبال الناس على التعليم ، والحصول على أكبر قسط من الثقافة .

وكان أهم مواد التعليم فى ذلك العصر هى العلوم الشرعية (القراءات رالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام) والعلوم اللسانية (النحو واللغة والبيان والأدب) والعلوم التعليمية (الفلسفة والهندسة والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا) [١٧] .

وكان أسلوب التعليم ونتيجته يتوقف على مقدرة المعلّم وثقافته ، واستعداد المتعلم وميوله العلمية والأدبية ، لا على الرقابة التى تقوم بها الدولة ، أو البرامج التى تضعها . وكان من أهم أغراض التربية الوصول إلى مناصب الدولة العليا ، والحصول على الثروة والجاه ، مما كان يتطلب من الفرد معرفة بعلوم الدين والدنيا معاً .

وقد تميز هذا الدور بازدهار الفرق الإسلامية المختلفة ، وكان لكل فرقة رجالها الذين يناصرونها ، ومفاهيمها التى يدافعون عنها ، وكتبها التى يروجون لها ، وطرقها فى نشر دعوتها وتعليم الكبار من اتباعها على مذهبها . وأصول هذه الفرق ترجع جميعها إلى أربع فرق هى : الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة .

الشيعة :

فهم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه ، وقدموه على سائر الصحابة ، وقاموا بامامته وخلافة أولاده من بعده وكانت لهم أصولهم فى العقيدة ، ومناهجهم فى الدعوة ، وأساليبهم فى التربية ، ومراكزهم فى التعليم ، ومدارسهم فى العلوم الشرعية والعقلية . وهم وإن اختلفوا إلى مذاهب شتى ، إلا أنهم جميعا قد سلكوا مسلك الدفاع عن التشيع جيلا بعد جيل [١٨] .

- أمـا الخـوارج :

فهم الذين خرجوا على الإمام على . وجمعهم القول بالتبرئ من عثمان وعلى رضى الله عنهما . ويرون الخروج علي الإمام إذا خالف السنة حقا واجبا . وهم وان اختلفوا فيما بينهم إلى فرق شتى ، إلا أنهم اندفعوا جميعا بكل ما لديهم من قوة مادية وروحية فى سبيل تحويل اعتقادهم هذا إلى فعل محسوس وواقع مشهود .

وقد اشتهر الخوارج بالصراحة فى القول والصرامة فى الفعل ، والاهتمام بالموضوعات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية ، ولم يهتموا بالمسائل الطبيعية ، ولم يبحثوا فى المسائل الميتافيزيقية (١٩) .

- أما المرجئة :

فكانوا يؤخرون العمل على النية ، ويذهبون إلى القول بانه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . ويؤخرون حكم مرتكب الكبائر إلى يوم القيامة .

وكل المرجئة يقولون إنه ليس فى أحد من الكفار إيمان بالله عز وجل ، ثم اختلفوا فيما بينهم فى تحديد الإيمان والكفر . وكان أكثر رجال المرجئة من ائمة الحديث (٢٠) .

- أما المعتزلة :

فهم أصحاب العدل والتوحيد الذين اجتمعوا على القول بان الله تعالى واحد لا يشاركه غيره ، وأنه تعالى عدل منزه عن الظلم ، وأنه عز وجل وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب ، وأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، وإنما يكون فاسقا فى منزلة بين المنزلتين ، وأجمعوا على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على المسلمين . وهذه هى أصولهم الخمسة التى اجتمعوا عليها واختلفوا فيما سواها من الفروع .

وقد تفرق شيوخ المعتزلة فى الافاق يدعون إلى دين الله ، ويعلمون الناس على مذهبهم فى العدل والتوحيد ، ويتصدون للرد على المخالفين بالمناظرات والكتب الكثيرة (٢١) .

- ونصل أخيرا إلى الدور الثالث لحركة تعليم الكبار ، وهو الدور الذى يبدأ من نشأة المدارس النظامية (٤٥٩هـ -١٠٦٧ م) حتى انتهاء الخلافة العباسية وبداية سلطان العثمانيين على جميع المسلمين (٩٢٣هـ - ١٥١٧م) .

يدخل المجتمع الإسلامى فى هذه المرحلة بظهور الأتراك السلاجقة (فى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى) عصره الثالث ، وهو عصر انقضاء العهد الذهبى للحضارة الاسلامية ، وبدء الانحطاط (٢٢) .

وقد اضمحل سلطان العرب بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) والقضاء على الخلافة العباسية ، وأصيبت الحضارة العربية بضربة قوية وسط الدمار الذى أشاعه المغول وقضى على كثير من أماكن العلم الإسلامى الذى ظل يترنح على الرغم من محاولات المماليك لإحياء الخلافة العباسية ، حتى جاء العثمانيون فى أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ليضموا العلم الإسلامى ، ويفرضوا عليه العزلة التى دفع العالم الإسلامى ثمنها من حضارته، ومن استقلاله مئات السنين .

وقد أدى ذلك كله إلى اضمحلال شأن اللغة العربية ، والثقافة العربية ، ووضح العقم فى البحث والتاليف ، حيث كانت كل الكتب اما شرحا لما سبقها ، أو جمعا لما تناثر منها ، أو تعليقا على آراء أصحابها . أما التاليف الجديد ، فلم يوجد فيه أى أثر للابتكار . كذلك أهملت المدارس وأماكن العلم ، واضطربت الحياة التعليمية ، وانخفض مستواها ، واختفى العديد من مؤسسات التعليم .

مؤسسات تعليم الكبار فى المجتمع الإسلامى :

نشأت المؤسسات التعليمية فى أوقات متباعدة ، وتطورت فى وظيفتها لتحقيق أغراض فرضتها حاجات المجتمع الإسلامى النامية المتطورة ، فكانت هذه المؤسسات بحق نتاجا إقليميا لأنها عكست صور المجتمع فى تطوراته المختلفة .

ويمكن تحديد أهم مؤسسات تعليم الكبار ووظائفها على النحو التالى :

(أ) المسجد :

يرتبط تاريخ الإسلام والتربية فى المجتمع الإسلامى بالمسجد ، لأنه المكان الرئيسى لنشر الثقافة الإسلامية .

وكان المسجد فى عصور الإسلام الأولى مكانا للعبادة والتثقيف الدينى ، ومركزا تُلقى فيه الأخبار الهامة ، وتتجمع فيه الجيوش ، ودارا للقضاء ، وبانتشار الإسلام زاد عدد المساجد ، واستمر المسجد حتى نهاية العصر الأموى مكانا لتعليم القرآن والحديث والفقه . فلما تنوعت العلوم فى العصر العباسى تنوعت حلقات الدروس فشملت النحو والشعر والأدب ، والعلوم اللسانية ، والكلام والجدل . وألحق ببعض المساجد الكبيرة (الجوامع) مكتبات ، وأهمها : جامع عمرو بن العاص - الأزهر بمصر ، والجامع الأموى بدمشق ، وجامع المنصور ببغداد .

وكانت حرية اختيار المتعلم لما يتعلمه مكفولة ، حيث إن الطلاب لا يدفعون أجرا .

ويمكن تقسيم الطلاب الذين يترددون على المساجد إلى قسمين :

- طلاب منتظمون فى الدراسة لا ينقطعون عن الدرس إلا بعد إتمام المنهج ، والحصول على إجازة من الأستاذ المختص .

- وطلاب مستمعون يذهبون من حين لآخر لاستماع بعض الدروس ، دون تقيد بمنهج معين فى حلقة من الحلقات التى كانت تتم فى صحن المسجد ، ويتوقف اتساع الحلقة على شهرة الأستاذ ومقدرته .

وكانت المساجد مفتوحة لكل راغب فى الاستزادة من العلوم والمعارف والآداب ، حتى أصحاب الحرف والمهن ، لم تمنعهم أعمالهم من حضور مجالس العلم فى المسجد وقت فراغهم . ونبغ منهم رجال كثيرون يعتزون بانتسابهم إلى أعمالهم : كالزجاج ، والنقاش ، والرفاء ، والبناء ، والوراق ، والعلاف ، والجزار [٢٣] .

وهكذا كان المسجد من أهم المنشآت التربوية فى المجتمع الإسلامى بالنسبة للكبار الذين يريدون التعمق فى بعض جوانب المعرفة ، والاستزادة منها ، مما أدى إلى خصوبة الإنتاج الفكرى فى التراث العربى الإسلامى .

(ب) الخوانق والزوايا والربط :

أعدت هذه المنشآت فى الغالب للمتصوفة الذين ينقطعون فيها للعبادة والدرس . وكانت الخوانق أماكن للدرس والعبادة والقيام بمراسيم التصوف . وكانت الزوايا تشبه الخوانق فى أغراضها ، وإن كانت أصغر منها . وكانت تبنى

للفقراء من الصوفية أو لشيخ مشهور يقوم فيها بنشر العلم ، وينقطع للعبادة ، ويشتهر بالتقوى ، وتعرف الزاوية باسمه .

أما الربط ، فهي بيوت الصوفية ومنازلهم حيث تلقى فيها دروس في الوعظ والدين ، وكانت هذه المؤسسات مجالس أدب وعلم وإرشاد وعبادة ، لا تكتفى بتعليم العلوم الدينية وحدها ، وإنما تهتم بتربية المريدين وتهذيب نفوسهم وتنقيتها من الشوائب .

وكانت بعض الخوانق والربط مخصصة لتعليم النساء وإيواء العاجزات منهن ، وتخصص لكل منها عدد من النساء العابدات العالمات يوقفن أنفسهم على تعليم النساء وإرشادهن (٢٤) .

(ج) الجمعيات والمجالس العلمية والأدبية :

بجانب المؤسسات السابقة ، انتشرت وازدهرت جمعيات علمية وأدبية فى القرن الثانى من حكم بنى العباس ، وأشرف على هذه الجمعيات بعض العلماء يتدارسون فيها العلوم والآداب التى تروقهم ، وينشرونها بين الناس فى كتب يكتبونها ، أو فى مناظرات يديرونها ، ويسمح فيها بالحضور لمن يشاء . وكان عملها يشبه المجامع العلمية أو معاهد التخصص ، وينتسب إليها المتخصصون فى فروع المعرفة . ولهذا أثرت هذه الجمعيات الحياة الثقافية فى المجتمع الإسلامى ، وكانت المجالس العلمية والأدبية تعقد فى قصور الخلفاء ، ومنازل الأمراء ودور العلماء (٢٥) .

(د) المكتبات ودور الحكمة والعلم :

كانت المكتبات أماكن للبحث والدرس ونشر العلم والثقافة للجميع ، حيث كانت تجمع فيها الكتب والمخطوطات النادرة ، وتفتح أبوابها للناس ، وتيسر لهم سبل البحث والدراسة بتوفير الحبر والورق ، وفيها يجتمع العلماء والمتعلمون للمطالعة والبحث .

وقد انتشرت المكتبات فى الإسلام انتشارا كبيرا ، وزودت أغلب المساجد والمدارس ودور العلم والحكمة بالمكتبات الكبيرة ، كما أنشأ عدد كبير من الناس دورا للكتب العامة ، وأخذوا يتنافسون فى ذلك فيما بينهم (٢٦) .

ولم يكن بيت الحكمة فى بغداد ودار الحكمة فى القاهرة إلا تطويرا لهذه المكتبات التى كانت وليدة ما حدث من انتعاش فكرى ، فدرست فيها العلوم والفنون المختلفة ، وقام العلماء بنسخ الكتب وترجمتها ، وبخاصة العلوم العقلية مثل الفلسفة والرياضة والطبيعة والفلك .

وكانت بيوت الحكمة ودور العلم مؤسسات ثقافية عامة لنشر العلوم والآداب،ولم تكن قاصرة فقط على الطلاب المتخصصين ، وإنما كان يقصدها الأفراد من مختلف الثقافات بغرض الدراسة أو النسخ أو الاطلاع (٢٧) .

وهكذا قامت هذه المؤسسات بدور كبير فى تقديم الخبرات العلمية للكبار الذين يريدون استكمال التعليم على يد مجموعة من العلماء يشاركونهم فى البحث يتعلمون منهم وينقلون عنهم .

(هـ) المدارس :

يقصد بها الأماكن التى بنيت لنشر نوع خاص من المعرفة المنظمة ، تحت إشراف الدولة ، وتنفق عليها المال وتراقب فيها التعليم ، وتعين لها المعلمين لتوفير وسائل استمرار الدراسة للمتعلمين .

والثابت أن إنشاء هذه المدارس ارتبط بالوزير نظام الملك السلجوقى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وارتبطت نشأتها بازدياد نفوذ السلاجقة وسقوط الدولة الفاطمية ، بالإضافة إلى الرغبة فى توفير أماكن للتعليم منفصلة عن المساجد تدرس فيها العلوم التى تحتاج إلى مناقشة وحوار وجدل ، مثل علم الكلام .

وقد أثرت هذه العوامل الدينية والدنيوية على مواد الدراسة فى المدارس حيث عنيت بالعلوم الدينية أكثر من غيرها ، ولم تعلم الفلسفة إلا للرد عليها والطعن فيها وإبطالها .

وقد أسهمت هذه المدارس فى حركة تعليم الكبار عن طريق الخدمات المكتبية ، حيث كان بكل مدرسة مكتبة يتوقف شهرتها على ما تحتويه من كتب ، وما تقدمه من محاضرات ، وما تجريه من مناظرات (٢٨) .

تعليم الكبار بين التراث والتجديد :

السؤال المطروح الآن .. ما جوانب التراث التى يمكن الاستفادة بها فى تحريك تعليم الكبار نحو صورته المستقبلية .

- إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى العديد من الدراسات والبحوث ، ولكننا سنحاول فى مجال دراستنا هذه عرض بعض الاتجاهات والمبادئ المنتقاة من عرضنا لحركة تعليم الكبار منذ ظهور الإسلام ، والتى يمكن الاهتداء بها فى تحريك واقع تعليم الكبار نحو صورته المنشودة فى المستقبل ، منطلقين من مجموعة اعتبارات لعل أهمها :

- أن التجديد لا يمكن أن يكون عن طريق الاقتباس فقط من الحضارة المعاصرة ، بل إن هناك جوانب من الحضارة الإسلامية تستوقف النظر ، وتشد التفكير ، بحيث لا ينبغى علينا تجاهلها عند الاقتباس من الحضارة الغربية .

- أن الفكاك من التبعية الفكرية ، والاعتماد على النفس ، هو موقف فكرى يقوم على قدرة البلاد العربية على تطوير أنظمتها وأساليبها وغايتها من خلال دراستها لتراثها الحضارى أولا ، وقدرتها على الإبداع والابتكار ثانيا ، وبحيث تكون الاستفادة من الدول المتقدمة بعين نافذة وبصيرة نافذة .

وفى ضوء هذين الاعتبارين ، يمكن أن نحدد أهم الاتجاهات والمبادئ البارزة فى التراث العربى الاسلامى على النحو التالى :

(أولا) : إن التربية فى الإسلام كانت نتاجا إقليمياً من صميم حاجات المجتمع الإسلامى الروحية والمادية والعقلية ، وأصبح المجتمع الإسلامى بالتالى مجتمعا مربيا تسوده الرغبة فى تعليم الكبار لأنهم المكلفون بدخول الدين ، وهم الذين يتلقون مبادئه ، ومن ثم ، فعليهم مسئولية ترجمة مبادئه إلى سلوك حياتى .

(ثانيا) : إن التربية الإسلامية ، كالحضارة الإسلامية ، خلاصة تفاعل ثقافات واتجاهات امتزجت ونتج عنها وحدة منسجمة جمعت بين الدين والدنيا ، واستندت فى أصولها وأغراضها وأساليبها إلى ثلاثة عناصر :

- **الدين الإسلامى** : وكان الباعث لتعليم الكبار .
- **الأخلاق العربية** : وكانت الأساس المتين للتربية .
- **الحضارة العربية الإسلامية** : وكانت مادة للتربية .

(**ثالثا**) : إن تعبير التعليم من المهد إلى اللحد كان يعكس رغبة المجتمع فى استمرار الفرد فى طلب العلم الذى نما وتطور وأصبح محور العملية التربوية ، وحرص كل فرد على نموه المستمر فى مجال المعرفة والإسهام فى نشرها . وقد كان لتعدد المنشآت التعليمية ونوع ما تقدمه من علوم دينية ودنيوية أثره فى نمو الإنسان معرفيا وعقليا وروحيا ، مما أدى إلى إنتاج حضارة شاملة .

(**رابعا**) : استهدف تعليم الكبار فى الإسلام تنمية قدرة الفرد على اكتساب المعارف والالتزام بالمواقف والأشكال الجديدة للسلوك التى تتفق وطبيعة المجتمع الجديد ، وبما يكفل الاندماج الواعى والفعال للأفراد فى الحياة ، سواء على المستوى الفردى ، أو على مستوى الجماعات ، أو فى إطار الدراسة فى منشآت تعليمية متعددة ، منها منشآت دينية ، وجمعيات أدبية وعلمية فى توافق تام .

(**خامسا**) : تحمل المجتمع الإسلامى بكل مؤسساته مسؤولية تعليم الكبار فى المجتمع ، بحيث لم توجد حدود لأنشطة تعليم الكبار ، إذ شملت كافة جوانب الحياة وجميع مجالات المعرفة ، بالإضافة إلى عدم وجود أى تقييد سواء على أساس السن أو الجنس أو العنصر أو الأصل الجغرافى أو الثقافى أو الوضع الاجتماعى أوالعقيدة ، أو مستوى تعليمى سابق .

(**سادسا**) : كانت النظرة إلى تعليم الكبار نظرة وظيفية تأخذ فى حسابها مجموعة من الاعتبارات منها دور الكبار فى المجتمع ، والمعارف والمهارات والاتجاهات المطلوبة . مما أدى إلى تحقيق المنشآت التعليمية لأهدافها فى إعداد الإنسان خلقيا وجسميا وعقليا ، وتمكينه من المشاركة فى حياة المجتمع ، وفى تغييره من الداخل .

(**سابعا**) : تنظيم منشآت تعليم الكبار والأساليب والوسائل المستخدمة ، ساعدت على تحقيق ديمقراطية العملية التعليمية بأوسع معانيها من خلال إتاحة فرص التعليم لكل فرد فى المجتمع ، وتنوع المنشآت التعليمية الذى مكن من اختيار نوع التعليم الذى يناسبه ، كما أن تنوع أساليب التعليم قد أدى إلى إقبال الأفراد والجماعات على التعليم ، كذلك مكنت تنظيمات المؤسسات التعليمية لكل فرد فى تناوب العمل والتعليم بأشكال وتنظيمات مختلفة ومتنوعة .

هذه بعض الملامح والاتجاهات التى يمكن استخلاصها من دراستنا لحركة

التربية بعامة وتعليم الكبار بخاصة فى المجتمع العربى الإسلامى ، والتى يمكن أخذها فى الاعتبار عند تجديد تعليم الكبار .

وحتى لا نستغرق فى تاملات نظرية نسوق بعض الأمثلة على كيفية الإفادة من التراث كأحد مصادر التجديد :

– إن المحاولات التى تبذل من أجل تطوير دور الجامعات فى مجال تعليم الكبار ، وبخاصة ما يطلق عليه الدراسات الإضافية ، ليست غريبة على المنشآت التعليمية الإسلامية ، حيث قامت هذه الدراسات فى جامع الزيتونة فى تونس ، والجامع الأزهر فى مصر ، فى مجال المعارف والثقافة الدينية عن طريق فصول نظامية لا تضع الشروط للدخـول ، ولا تفرض المصروفات للقبول ، ولا تجعل من السن قيدا ، ولا من المنهج قيدا وفرضا .

ومن هنا يثار السؤال التالى . . كيف يمكن الإفادة من هذا التراث فى تطوير ودعم هذا النوع من الدراسات للكبار ؟

– إن حلقات الدراسة ومجالس العلم تطورت فى المجتمع العربى الإسلامى وتنوعت مستوياتها واختلفت موضوعاتها ، وكانت مفتوحة لكل من يرغب فى الانضمام إليها . وقد نمت هذه التنظيمات دون أن تتدخل الدولة فى تشكيلها .

الا يمكن الإفادة من هذه الممارسة فى تدعيم حركة تعليم الكبار؟

– كان المسجد ركنا من أهم أركان التعليم للكبار ، وعلى الرغم من انفصال التعليم عن المسجد ، إلا أن دوره الدينى الواضح يفرض علينا التفكير فى كيفية الإفادة منه فى مجال تعليم الكبار بحيث يعود إلى مكانته كمركز إشعاع فى البيئة .

وهكذا يمكن القول أن التراث الإسلامى فى حاجة إلى دراسة وبحث إذا أردنا أن يكون لنا تربية إسلامية عربية وتعليم كبار إسلامى عربى .

ويصبح السؤال المطروح :

كيف ننظم تعليم الكبار بطريقة يندمج فيها التراث فى حياتنا المعاصرة ، بحيث يكون لدينا تعليما للكبار له أهدافه ووظائفه ومجالاته المعاصرة ، أى مفتوحا على العصر ، وغير مقطوع الصلة بتراثنا الاسلامى العربى ؟ .

* * *

المراجع

(١) حامد مصطفى عمار – تأصيل تعليم الكبار – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٢) زكي نجيب محمود – تحديد الفكر العربى – دار الشرق – الطبعة الثالثة ١٩٧٤ – ص ٩– ٢٠ .

(٣) د. أحمد شلبى : التربية الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٧، ١٩٨٢ – ص ٤٤–٤٥ .

(٤) راجع : ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله – دارالفتح – القاهرة ،(بدون تاريخ) ، ج ١ ، ص ٧–٣٠ .

(٥) راجع : المصدر السابق – ص ٩٥ – ١٠٠ .

(٦) الكهف :٦٦.

(٧) د. أحمد فؤاد الاهوانى : التربية فى الإسلام ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ،ص٢٠ .

(٨) ابن النديم : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص ٦٦ .

(٩) المصدر السابق : ص٦٩.

(١٠) المصدر السابق : ص ١٢٢ .

(١١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الاسلام – ترجمة : حسن إبراهيم حسن– عبد المجيد عابدين – إسماعيل النحراوى – مكتبة النهضة العربية ، (بدون تاريخ) ص ٣٣ – ٣٤ .

(١٢) انظر د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام – ج ١ ، ص٤٩٦ – ٥٠٥ .

(١٣) د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج١ ص ٥٠٩ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٥١٠ ، ٥٢٤ .

(١٥) سيديو : تاريخ العرب العام – ترجمة : عادل زعيتر – دار إحياء الكتب العربية – ط ٢، ١٩٦٩ ، ص ١٨٢ .

(١٦) د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج ٢، ص ٣١٧ .

(١٧) د. حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٣١٨ – ٣٥٠ .

(١٨) فى بيان فرق الشيعة وتفصيل مذاهبهم – راجع : – النوبختى – القمى : فرق الشيعة : تحقيق : د. عبد المنعم الحفنى ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط١ –١٩٩٢ ص ٢٨– ١٠٩ .

– محمد الحسين آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها – مؤسسة الأعلمى ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٢ ، ص ٥٧ – ٧٥.

– الأشعرى : مقالات الإسلاميين – تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة العربية ، ط٢ ، ١٩٦٩ ، ج١ ، ص ٦٥ – ١٠٥ .

– البغدادى : الفرق بين الفرق – دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط٥ ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢ – ٥٤ .

– الشهرستانى : الملل والنحل – تحقيق : محمد سيد كيلانى – مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ج١ ، ص١٤٦ – ١٩٨ .

(١٩) فى بيان فرق الخوارج وتفصيل مذاهبهم :

راجع : – الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ج١ ، ص١٦٧ – ٢٠٣ .

– البغدادى : الفرق بين الفرق – ص ٥٤ – ٩٢ .

– الشهرستانى : الملل والنحل – ج١ ، ص١١٤ – ١٣٨ .

(٢٠) فى بيان طرق المرجئة وتفصيل مذاهبهم :

راجع : – الأشعرى : مقالات الإسلاميين – ج١ ، ٢١٣ – ٢٢٥ .

– البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص١٩٠ – ١٩٥ .

– الشهرستانى : الملل والنحل ، ج١ ، ص١٣٩ – ١٤٦ .

(٢١) فى بيان طرق المعتزلة وتفصيل مذاهبهم :

راجع : – القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، تحقيق : عبد الكريم عثمان – مكتبة وهبة ط١ ، ١٩٦٥ ، ص١٢٢ – ١٤٨ .

– القاضى عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق : فؤاد سيد ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٤ – ص٢١٤ – ٣٥٤ .

– الأشعرى : مقالات الإسلاميين – ج١ ، ص٢٣٥ – ٢٨٠ .

– البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص٩٣ – ١٨٩ .

(٢٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية – ترجمة : حمزة وطاهر – دار المعارف – ط ٥ ، ١٩٨٣ ، ص١١٤ .

(٢٣) راجع بالتفصيل :

– د. أحمد شلبى : التربية الإسلامية – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ص١٥٢ – ١١٢ .

– أسماء حسن فهمي : مبادئ التربية الإسلامية – مطبعة التاليف والترجمة والنشر – القاهرة، ١٩٤٧، ص ٢٦– ٢٩.

– خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس – ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي – دار البيان (بدون تاريخ) ، ص ١٣٥– ١٤٥.

– د. سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية – دار الفكر العربي ١٩٨٦، ص ٢٠١– ٣٠١.

– سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام – جامعة الموصل – العراق ، ١٩٨٢ ، ص ١٢، ٨– ٦٠– ٦٢.

– عبد الرحمن النحلاوي : أصول التربية الإسلامية – دار الفكر – دمشق ط١ ، ١٩٧٩، ص١١٩– ١٢١.

(٢٤) راجع بالتفصيل :

–أسماء فهمي : مبادئ التربية الإسلامية ، ص ٣٦– ٣٧.

– د. سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٥٩٤ – ٦١٧.

– سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ١٢ – ١٣، ٦٨– ٦٩.

(٢٥) راجع بالتفصيل :

– د. أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٦٦– ٩٦ .

– اسماء فهمي : مبادئ التربية الإسلامية – ٣٨– ٣٩.

– د. سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٤٩٣ – ٥٢٩.

– سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٧٣ – ٧٤.

(٢٦) راجع بالتفصيل :

– أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ١٣٩ – ٢٠٥.

– أسماء فهمي : مبادئ التربية الإسلامية ، ص ٤٠ – ٤١ .

– خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ١٨٩ – ٢٥٤.

– د .سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٣٨٧ – ٤٥٥ .

– سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٧١– ٧٣.

(٢٧) راجع بالتفصيل :

– أسماء فهمي : مبادئ التربية الإسلامية ، ص ٢٩ – ٣١.

– د. سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٤٥٨ – ٤٧٥.

- سعيد الديوة جى : التربية والتعليم فى الإسلام ص ٦٣- ٦٦ .

(٢٨) راجع بالتفصيل :

- د. أحمد شلبى : التربية الإسلامية ، ص ١١٣- ١٣٦ .

- أسماء فهمى : مبادئ التربية الإسلامية ، ص ٣٢- ٣٦ .

- خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ص ١٥٤ - ١٥٨ .

- د. سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٣٠٣ - ٣٨٦ .

- سعيد الديوة جى : التربية والتعليم فى الإسلام ، ص ٧٤ - ٨١ .

* * *